

المحاضرة الأولى

ماهية علم النفس الاجتماعي

Social psychology definition

Définition de la psychologie sociale

تمهيد:

بسبب تسميته التي تتضمن مفردتين في علاقة مع علمين مستقلين وهما علم النفس وعلم الاجتماع؛ أُعْتُبر علم النفس الاجتماعي في بداياته كاختصاص وسيط بين هذين الأخيرين أو بين علم النفس وبين الأنثروبولوجيا، أي بين الجانب الشخصي الداخلي المتعلق بالفرد وبين الجانب الاجتماعي الخارجي المتعلق بالعلاقات بين الأفراد أو الجماعات أو المجتمع ككل، حيث كان يشار له بأنه "علم اجتماع مصغر" أو "أنثروبولوجيا مصغرة"، وإن كان هذا اللبس بشأن موضوع علم النفس الاجتماعي لم يعد قائماً بين المختصين فيه وبين المختصين في علم النفس بشكل عام، فإن كثيراً من المنتمين لاختصاصات أخرى لا يزالون يرون فيه مجرد تجميع لمعارف من كلا التخصصين وهي نظرة غير دقيقة لموضوع علم النفس الاجتماعي ومناهجه وأدواته البحثية وميادينه التطبيقية، لذلك ستكون هذه المحاضرة فرصة لطلبة السنة الثانية علم النفس لإزالة هذا اللبس من خلال الإضطلاع على نشأة هذا العلم وتطوره والتعاريف المقدمة له وكذا ميادينه التطبيقية.

1. نشأة وتطور علم النفس الاجتماعي:

يصعب تحديد بدايات علم النفس الاجتماعي بدقة (كما يصعب فعل ذلك مع كل العلوم) فالسنوات المقدمة عادة تعتبر نقاط معلّمة لوضع هذا العلم في سياقه التاريخي والفكري أكثر من كونها تواريخ ميلاد كما هو الشأن بالنسبة للأفراد.

هناك العديد من الفلاسفة الذين شكلت أفكارهم وكتاباتهم تمهيدا لظهور علم النفس الاجتماعي العلمي وأهمهم: أفلاطون Platon، أرسطو Aristote، كانط Kant، هيجل Hegel، لوك Locke، بانتهم Bentham، ميل Mill، هوبس Hobbes، روسو Rousseau، كونت Comte وقد اشتركت جميع تلك الكتابات في الإشارة إلى العلاقة بين الفرد والآخرين، حيث تحدث أفلاطون مثلاً على ما أسماه "تفكير الجُمُهرَة the crowd mind" وهي وضعية رأى فيها أن أذكى الأفراد يمكن أن يتحولوا إلى غوغائيين وسوقيين غير عقلانيين لو جُمِعوا في حشد مع غيرهم، أما كونت فاعتبر أن الإنسان مُشكّل من طرف المجتمع الذي يعيش فيه وهي أفكار أعيد طرحها فيما بعد مع بداية الأعمال المؤسّسة لعلم النفس الاجتماعي.

تعود بدايات علم النفس الاجتماعي في أوروبا إلى النصف الثاني من القرن 19، وقد بدأ الإشتغال على هذا الحقل العلمي في ألمانيا مع لازاروس Lazarus وشتاينثال Steintal اللذان أسسا في سنة 1860: "مجلة علم نفس الشعوب واللسانيات et de linguistique des peuples et de linguistique", أما في إيطاليا فقد كان ذلك مع كاتانيو Cattaneo الذي ناقش سنة 1864 "الأطروحة المضادة L'antithèse" كمنهج في علم النفس الاجتماعي، أما في فرنسا فبدأ سنوات فيما بعد مع طارد Tarde (1898) ولوبون Le Bon (1895) حيث أجرى الأول دراسة حول التحول الاجتماعي، في حين اهتم الثاني بالدور الرئيسي للعواطف في الجمهرة la foule وذبوان الضمير الفردي في الضمير الجمعي.

في سنة 1900 قدم ثيودول ريبو Théodule Ribot علم النفس الاجتماعي في الطبعة الرابعة للمؤتمر الدولي لعلم النفس الذي أقيم في باريس، وظهرت أول يدوية في علم النفس الاجتماعي لمؤلفها أورانو Orano في سنة 1902 وكانت بعنوان: "دراسة في علم النفس الاجتماعي"، لكن علم النفس الاجتماعي عرف انطلاقته الحقيقية في الولايات المتحدة سنة 1908 مع روس Ross وماك دوغال Mc Dougall من خلال كتابيهما "علم النفس الاجتماعي" و"مقدمة في علم النفس الاجتماعي" حيث عُرفا فيما بعد كرواد لهذا الاختصاص وقد ركز الأول أبحاثه على الغرائز les instincts وحاول تفسير السلوك الاجتماعي بمراقبة هذه الأخيرة، أما الثاني، فقد فسر سلوك الفرد في المجتمع انطلاقا من ظاهرة التقليد.

2. تعريف علم النفس الاجتماعي:

يصعب إيجاد تعريف شامل لعلم النفس الاجتماعي، فالتعاريف الموجودة تتناول حقلا واحدا أو اثنين من حقول البحث في هذا الاختصاص:

- **تعريف ألبورت Allport (1954):** إعتبر ألبورت علم النفس الاجتماعي العلم الذي يهدف لفهم وتفسير كيف تتأثر الأفكار، المشاعر، السلوكات الحركية للكائنات البشرية بالآخر الحقيقي l'autrui réel (الشخص الجسدي) أو الخيالي (imaginaire)، وكل ما يقود الفرد إلى المعرفة والأخذ بالحسبان طابعه الاجتماعي (الجماعة الاجتماعية) والضمني (الإطار السوسيو-ثقافي، المعايير والقيم).

- **تعريف ميزونوف Maisonneuve (1964):** الذي اعتبر أن «موضوع علم النفس الاجتماعي هو التفاعل والعلاقة، أي تفاعل التأثيرات الاجتماعية والشخصيات الفردية، علاقات الأفراد فيما بينهم والجماعات فيما بينهم».

- **تعريف موسكوفيسي Moscovici (1970):** الذي اعتبر فيه أن «علم النفس الاجتماعي هو علم ظواهر الأيديولوجيا (المعارف والتصورات الاجتماعية) وظواهر التواصل، على مختلف مستويات العلاقات الإنسانية: العلاقات ما بين الأفراد، ما بين الأفراد والجماعات، ما بين الجماعات».

تعكس هذه التعريفات تركيز أصحابها على الحقول البحثية التي يشتغلون عليها أكثر من سعيها لتمييز موضوع علم النفس الاجتماعي عن مواضيع بقية العلوم الاجتماعية (علم النفس وعلم الاجتماع بالتحديد).

قدم موسكوفيسي ما سماه "النظرة البسيكو-سوسيولوجية" التي تميز علم النفس الاجتماعي عن علم النفس وعلم الاجتماع أو اتحادهما معاً، ففي علم النفس يهتم المختصون بكيفية إدراك الفرد للموضوع:

الفرد (العضوية، الأنا ego) le sujet individuel ← الموضوع (المثير، المحيط)

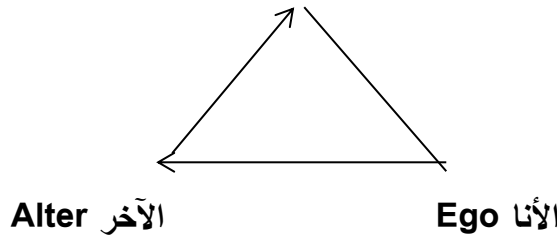
في حين يهتم المختصون في علم الاجتماع بالعلاقة بين الشخص الجماعي وموضوع يختلف بين الاجتماعي وغير الاجتماعي:

الشخص الجماعي le sujet collectif ← موضوع يختلف بين الاجتماعي وغير الاجتماعي

أما النظرة البسيكو-سوسيولوجية التي تحدد موضوع علم النفس الاجتماعي فتترجم بقراءة ثلاثية للأفعال والعلاقات، حيث يدرس إدراك الفرد للموضوع من خلال تأثره بالآخر (الشخص الاجتماعي):

الموضوع Objet

(الفيزيقي، الاجتماعي، الخيالي أو الواقعي)



المخطط 01: يوضح النظرة البسيكو-سوسيولوجية

يبين عرض النظرة البسيكو-سوسيولوجية أن الفرد وعلاقته بمختلف مستويات الواقع الاجتماعي هو مركز إهتمام علم النفس الاجتماعي، وذلك على عكس علم النفس الذي يهتم أكثر بتأثير السيرورات الداخلية (البيولوجية، الفيزيولوجية، الدينامية والمعرفية) على معاش الفرد وسلوكاته. وقد حدد دواز Doise (1982) أربع مستويات من التحليل يحدد جمعها ما هو علم النفس الاجتماعي:

- المستوى داخل فردي/ نفسي: نبحث فيه عن تفسير السلوك في الفرد نفسه.
- المستوى ما بين الأفراد: نبحث فيه عن تفسير السلوكات في محيط الأفراد دون أي شيء آخر لا يدخل كعنصر في التفاعل الاجتماعي الجاري.

- المستوى المكاني le niveau positionnel: نبحث فيه عن تفسير السلوكات في المركز الخاص الذي يشغله الفرد في نظام اجتماعي معين.
- المستوى الأيديولوجي: نأخذ فيه بعين الاعتبار نظام معتقدات الأفراد، تصوراتهم والديناميكيات الاجتماعية الحقيقية التي يتواجدون فيها.

3. ميادين علم النفس الاجتماعي:

بما أنه لا يوجد ميدان من ميادين الحياة اليومية يخلو من تواجد الأفراد والجماعات والتفاعلات الحاصلة فيما بينهم، فإن علم النفس الاجتماعي بما يقدمه من نظريات ونماذج تفسيرية أو تنبؤية للسلوك وحلول عملية لمختلف الظواهر البسيكو-سوسولوجية هو محل اهتمام من قبل تخصصات عديدة (علم النفس التنظيم والعمل، علم النفس الرياضي، علم الإعلام والاتصال، علم النفس الصحة، علم التسويق، إلخ)، وفيما يلي أهم الميادين التي تستفيد يوميا من تطور الأبحاث في علم النفس الاجتماعي:

أ. التربية، التعليم، التكوين: تعتبر المدرسة مجتمعا مصغرا تظهر فيه مختلف مظاهر الحياة الاجتماعية، ويحاول فيه المجتمع نقل معايير، قيمه ومعتقداته إلى الأجيال الصاعدة، وهذا ما يجعل التلميذ في تفاعل مستمر مع المعلم والزملاء والإداريين ومع ما تنقله البرامج الدراسية من معارف وقيم ومعتقدات وأنماط في التفكير. وبما أن تعلم التلميذ وتأقلمه في وسطه المدرسي مرهون بالمتغيرات المميزة لوسطه الأسري والاجتماعي وبقدرته على التكيف في المدرسة، فعادة ما توظف نظريات علم النفس الاجتماعي لمعرفة وفهم مختلف مراحل التنشئة الاجتماعية، مظاهر التنافس والتعاون والنشاط الاجتماعي داخل حجرة الدرس، كما تستغل الأنشطة اللاصفية المستوحاة من تجارب المختصين في هذا العلم لتشجيع المنافسة والتعاون بين المتعلمين، أو خفض من القوالب النمطية les stéréotypes السائدة بين التلاميذ بخصوص الجنس والعرق والدين. أما في ميدان تكوين الراشدين فكثيرا ما يوظف التحليل النفسي-اجتماعي لوضعيات التكوين.

ب. الإعلام والدعاية: تكتسي عمليات التواصل بين الأفراد، داخل الجماعات، ما بين الأفراد والجماعات أو ما بين الجماعات والجماعات أهمية كبيرة بالنسبة للمختصين في علم النفس الاجتماعي، وعادة ما توظف أبحاث هؤلاء من قبل المختصين وممارسي الإعلام والاتصال، وبالأخص تلك المتعلقة بأثر وسائل الإعلام والاتصال في عمليتي التنشئة الاجتماعية والتطبيع الاجتماعي، الدعاية وأسسها وفعاليتها، دراسة الجمهور، صناعة الرأي العام، تغيير الاتجاهات، تأثير شبكات التواصل الاجتماعي، إلخ.

ت. الإقتصاد، الإنتاج، إدارة الموارد البشرية، الأعمال، الإستهلاك: تعتبر دراسات مايو (1930) وتايلور المبكرة في ميدان الإنتاج والعلاقات داخل المؤسسات خير دليل على أهمية أبحاث علم النفس الاجتماعي في ميدان الإقتصاد والإدارة والإنتاج والإستهلاك، فهي تتيح للإقتصاديين الحصول على نماذج للتنبؤ بالسلوك

الفردية أو سلوك جماعة صغيرة في وضعية شراء، هبة أو دفع ضريبة والمتغيرات التي تتدخل في قرار الإستهلاك ك: السن، الجنس، الطبقة الاجتماعية، مكان السكن، كما يساعد هذا الاختصاص على فهم سيكولوجية الإعلان عن السلع، ويفيد المدراء وأصحاب الأعمال في سعيهم لفهم العلاقات الإنسانية الاجتماعية بين العمال فيما بينهم وبين أصحاب العمل، وكيفية رفع روحهم المعنوية وزيادة إنتاجهم، وكذا تقييم الرضا الوظيفي للعامل، دافعيته للعمل، وقدرته على استيعاب ثقافة المؤسسة، وقدرة المسؤولين على التسيير واتخاذ القرار.

ث. الصحة: عادة ما توظف نتائج الأبحاث في علم النفس الاجتماعي في ميدان الصحة، وبالأخص في حقول مثل العزو السببي، التأثير الاجتماعي، الإتجاهات والتصورات الاجتماعية، حيث تستغل تلك النتائج في ميدان الوقاية من السلوكيات الخطرة، والحملات التحسيسية ضد الإدمان على المخدرات، الكحول والتدخين، أو معرفة وتحليل التصورات الاجتماعية للصحة والمرض لدى الأشخاص. كما تتم الاستفادة من هذا العلم في ضمان التكفل بالأشخاص المسنين.

ج. القانون: توظف المعارف التي بحوزة الباحثين في علم النفس الاجتماعي لفهم وضعيات الإتصال وسيرورات التأثير من أجل تحسين نوعية المقابلات مع الشهود والضحايا، كما توظف نماذج عزو المسؤولية والعقاب لفهم ميكانيزمات الحكم والتأثير التي يخضع لها المحلفون les jurés، ويمكن للبسيكو-سوسيولوجيين أن يجرؤا أبحاثا حول تأثير الرأي العام على أحكام القضاء.

ح. الرياضة: عادة ما توظف نتائج الأبحاث حول الدافعية، العزو السببي، الشعور بالفعالية في علم النفس الاجتماعي من قبل علم النفس الرياضي وذلك لفهم الميكانيزمات البسيكولوجية التي تمس أداء الرياضي والطريقة التي يمكن أن تمنح لهذا الأخير الوسائل للوصول إلى قمة مكومونه الفيزيقي، كما توظف نتائج الأبحاث حول القيادة، تماسك الجماعة لتحسين بناء الفرق الرياضية وأدائها.

خ. البيئة: يمكن لعلم النفس الاجتماعي أن يفيد في تحديد الطرق التي تساعد في إقناع الجماعات بضرورة التعاون في سبيل الحفاظ على الموارد المتجددة بدلا من استنزافها، وبالتالي تحسين علاقة الفرد مع محيطه الفيزيقي والاجتماعي.

د. النقل: عادة ما توظف نتائج أبحاث علم النفس الاجتماعي بخصوص إدراك الخطر، سيرورات التأثير الاجتماعي لفهم وحماية وتكوين ومراقبة مستعملي الطريق المعرضين للخطر (الراجلون، سائقو الدراجات، المسنون، السائقون المبتدئون)، وكذا تحسين أداء السائق والتحسيس والوقاية في الأمن الطرقي وعقاب وإعادة تأهيل المخالفين.

خلاصة:

يمكن أن نستخلص مما سبق، أن موضوع علم النفس الاجتماعي مستقل تماماً عن موضوعي علم النفس وعلم الاجتماع، فهو يهتم بالفرد والجماعات الصغيرة وتأثره وتأثيره في بقية الأفراد والجماعات، ويحدث هذا التأثير والتأثر على مستوى الدوافع والسلوك والاتجاهات والتصورات والمعتقدات، والقيم، إلخ. وبما أن حياتنا الاجتماعية بمختلف جوانبها (في البيت، في الحي، في المدرسة، في العمل، في الملعب، ...) لا تخلو من تواجد الأفراد والجماعات ومختلف التفاعلات الحاصلة فيما بينها، فإن نظريات علم النفس الاجتماعي وتطبيقاته مهمة لبقية التخصصات العلمية ومختلف الفاعلين الاجتماعيين، وبما أن هذه المقياس موجه لطلبة السنة الثانية علم النفس الذين سيتخصصون فيما بعد في علم النفس العيادي أو علم النفس التنظيم والعمل، فإننا نعتقد أن المحاضرات القادمة ستساعد المختص في التخصص الأول على فهم أعمق للتأثيرات الإيجابية أو السلبية لتواجد الفرد في محيط اجتماعي ومساهمة علاقة الفرد بالآخر في ظهور الإضطرابات النفسية أو السلوكية أو معالجتها، تماماً كما ستساعد المتخصص في التخصص الثاني على تحليل العلاقات الإنسانية داخل الجماعات الرسمية وغير الرسمية التي تشكل بيئة العمل.